المبحث الثالث
شعر الطبيعة

هذا ميدان آخر أخصبت فيه قرائح الأندلسيين وحلقوا في أجوائه تحليقاً ولذلك عده كثير من الدارسين مناطاً للتجديد وموضوعاً أبدعوا فيه، وامتازوا على الشعر المشرقي من حيث أن الجديد هو انعكاس للبيئة الجديدة وتفاعل معها، وهو عند بدير متولي حميد لون من ألوان ثلاثة تفوق فيها الأندلسيون هي شعر الطبيعة وشعر الحب والشعر الحزين،[1] ولعل بلداً عربياً لم يكثر شعراؤه من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما أكثر شعراء الأندلس.[2]

وقف دارسو الشعر الأندلسي كتباً أو فصولاً في دراسة هذا اللون، وخصائصه وسماته، وأبرز شعرائه،[3] إن الشخصية الأندلسية مهما كانت مرتبتها العلمية والاجتماعية كانت تذوب وتتلاشى كلما التقت بالطبيعة أو واجهتها، إذ لا تمتلك غير الاستجابة لها، ملبية دعوتها إلى الاستمتاع بما تزخر به من مفاتن،[4] فقد شغل شعر الطبيعة الناس جميعاً، خاصتهم وعامتهم، ملوكهم وسوقتهم.[5]

أثر الطبيعة في الحياة الثقافية:

ونحسب أن التأثر بالطبيعة، تجاوز الشعر والنظم إلى النثر بل إلى الحياة الثقافية عامة، فمن الرسائل النثرية رسالة أبي حفص بن برد إلى أبي الوليد بن جهور يصف فيها خمسة أصناف من النواوير هي: الورد، النرجس، البنفسج، البهار، الخيري النمام وغرضه تفضيل الورد من بينها وقد اطلع أبو الوليد الحميري على هذه الرسالة فأحب أن يحاكيها فجعل المجلس سبعة أنواع من الزهور هي الخمسة المتقدمة وأضاف عليها الأقحوان والخيري الأصفر، وغايته تفضيل البهار على الورد ووجهها إلى القاضي المعتضد بن عباد، وكلتا الرسالتين جاء في كتاب البديع.[6]

وقد شاعت القطع الشعرية والنثرية في المفاضلة بين نور ونور مما كان يجر إلى

---

١ قضايا أندلسية، ١٣١.

٢ فصول في الشعر ونقده، ١٥٨.

٣ ومن هذه الدراسات: الطبيعة في الشعر الأندلسي، د. جودة الركابي، والشعر والبيئة في الأندلس، د. ميثال عاصي، ومن الرسائل الجامعية، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، د. سعد شلبي، القاهرة، ١٩٧٨. والطبيعة في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين، للباحث محمود منصور، عمان، ١٩٨٥. ومن الدراسات التي أفردت فيه فصولا، دراسة د. سيد نوفل في شعر الطبيعة في الأدب العربي، ١٩٤٥. ود. بدير متولي حميد في قضايا أندلسية، ١٩٦٤، ود. مصطفى الشكعة في الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ١٩٧٤. ود. عمر الدقاق في ملامح الشعر الأندلسي، ١٩٧٥. ود. عبد العزيز عتيق في الأدب العربي في الأندلس، ١٩٧٥، شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي، د. سليمان العطار، القاهرة، ١٩٧٣.

٤ في الشعر الأندلسي، ص ١٨، د. عدنان صالح مصطفى، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٧.

٥ قضايا أندلسية، ١٤٤.

٦ ينظر البديع، ٥٣، ٥٨.

النقاش والجدل، ونشأ ضرب من المعارضات في مجال ذكر نواوير الربيع على نحو ما حصل بعد أن نظم أبو الحسن علي بن أبي غالب الأستجي قصيدته الضادية معارضة ستة شعراء هم أبو الوليد الحميري، وأبو بكر بن القوطية، وأبو جعفر بن الأبار، وأبو بكر بن نصر، وأبو الأصبع بن عبد العزيز، ومحمد بن عباد القاضي الذي توجهت إليه قصائد الشعراء المذكورين آنفاً.[1]

ويرى إحسان عباس أن هذه المقطعات الصغيرة في وصف صنوف الأزهار تمثل (بطائق) المهاداة بين الأصدقاء، وليس لديهم من غاية سوى طلب الصورة المبتكرة،[2] وقد وجد حميد في هذا الاتجاه ضرباً من التخصص، لا سيما أن الشاعر يختار زهرة واحدة لينظم فيها.[3]

ونلحظ أثر الطبيعة كذلك في العناوين التي اختاروها لكتبهم فمن ذلك: الحدائق لابن فرج الجياني (ت٣٦٦هـ)، وحديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح لأبي عامر بن مسلمة،[4] والحديقة لأمية بن أبي الصلت الحكيم (ت٥٢٩هـ)، والطير ليوسف بن هارون (ت٤٠٣هـ)، والبديع في وصف الربيع لأبي الوليد الحميري (ت٤٤٠هـ)، وزمان الربيع لأبي بكر الخشني الجياني المعروف بابن أبي ركب (ت٥٤٤هـ)،[5] والروض المعطار في خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميري (ت٧٢٧هـ)، وروضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وأزهار الرياض في أخبار عياض، وروضة الآس العاطرة الأنفاس للمقري (ت١٠٤١هـ)، وكتاب البستان للزياني، كما نجد شيوع تسمية الحرائر والجواري بأسماء الزهور، ومن هذا ما روي من أن المنصور بن أبي عامر كان قد سمى بناته بأسماء الزهور، فنظم الشعراء في وصف الزهور لتبيين فضيلة كل نوع منها وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور.[6]

عرفت الأندلس شعر الطبيعة منذ عهد مبكر، فقد عارض ابن أبي عبده، وزير عبد الرحمن الناصر (٣٠٠. ٣٥٠هـ) ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد، وأنشد أبو مروان الجزيري (ت٤٩٣هـ) قصيدته على لسان بهار[7] العامرية، وكان يوجه رسائله إلى المنصور على ألسنة كرائمه بزهور رياضه:[8]

---

١ البديع، ٤٠. ٤٩.
٢ تاريخ الأدب الأندلسي، ١٩٧/٣.
٣ قضايا أندلسية، ١٥١.
٤ الذخيرة، ١٠٦/١/٢.
٥ رايات المبرزين، ٤٠.
٦ تاريخ الأدب الأندلسي، ١١١/١.
٧ الذخيرة، ٤٨/١/٤.
٨ يطلق الدارسون على شطر من شعر الطبيعة، مما يعني بوصف النور أو الزهر تسمية "النوريات" ولغزارة ما كتب في هذا اللون، كتبت دراسات عنه منها رسالة د. كميل ناشف: شعر النوريات بين المشرق والأندلس، جامعة القديس يوسف، ١٩٨٤. وبحث للسيد مقداد رحيم خضر بعنوان "تاريخ النوريات في الشعر العربي في المشرق وفي الأندلس، مجلة آداب المستنصرية، العدد ١١، ١٩٨٥، ص ١٩٩ . ٢٣٥. وأقدم منهما ما كتبه

حدق الحسان تقر لي وتغار وتضل في صفتي النهى وتحار

ولابن عبد ربه وابن الشهيد وابن حزم قصائد متفرقة في وصف الطبيعة.

عصر الطوائف والمرابطين:

وفي عصر الطوائف والمرابطين يزدهر هذا الموضوع، ازدهار موضوعات الشعر الأخرى بحيث يؤلف نسبة عالية عند الشعراء، فقد خرجوا على العرف السائد بالوقوف على الأطلال في مطالع القصائد واستهلوها بشعر الطبيعة، ليس هذا فحسب إذ قلما يرد وصف الطبيعة مفرداً عن موضوعات الشعر الأخرى إلا لدى عدد قليل من الشعراء، وخير من يمثل هذا الامتزاج ابن زيدون في قصيدته القافية المشهورة التي يقول فيها:[1]

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق، ومرأى الأرض قد راقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا

نلهو بما يستميل العين من زهرٍ جال الندى فيه، حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقي بكت لما بي، فجال الدمع رقراقا

ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين إشراقا

لقد أثرت هذه القصيدة في الشعراء وتجاوز أثرها الشعراء العرب إلى شعراء الطبيعة الغربيين الذين يربطون بين الطبيعة والحب،[2] فإذا كانت هذه القصيدة تستحوذ على اهتمام الأدباء إعجاباً بها فإن من الباحثين من شخص ظاهرة تدعو إلى التأمل والدراسة تتمثل في أننا لا نكاد نجد لابن زيدون في الطبيعة الأندلسية الساحرة مقطوعة واحدة فضلاً عن قصيدة كاملة تستقل بنفسها يصف فيها شيئاً من مظاهر الطبيعة.[3]

إن شعر ابن زيدون كله. كما يرى ناصر الدين الأسد. يكاد يكون أفوافاً من الطبيعة موشاة نسجتها يد صناع،[4] أبدعت تصوير حواشيها وإبراز نقوشها، ولكن كيف يعلل هذا الإهمال في شعره؟

الحق إنه ليس إهمالاً للطبيعة بل إننا نلاحظ تفاعل الشاعر بها حتى امتزجت بعروقه وخالطت بشاشتها روحه الشاعرة، وعادت الطبيعة ذوباً من عواطفه، وحواسّه، بحيث لم يكن يحس بالطبيعة ومظاهرها معزولة وحدها إحساساً منفصلاً مستقلاً قائما بذاته حتى يفردها في قصائد ومقطوعات، إنما كان إحساسه بالطبيعة جزءاً من إحساسه العام بالجمال ممزوجاً بإحساسه بالمرأة وشعوره بها.. ومن ذوب

د. إحسان عباس في تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص ١٠٦. ١١٢.

١ ديوان ابن زيدون، ١٣٩.

٢ مقدمة ديوان ابن زيدون، ٨٢.

٣ ليس في شعر ابن زيدون، بحث د. ناصر الدين الأسد، مجلة الكتاب، العدد ١١، ١٢، بغداد، ١٩٧٥.

٤ نفسه، ٥٩.

هذه الأحاسيس صاغ شعره في الغزل والتشوق والتذكر والمناجاة والشكوى والوصل والهجر.[1]

وبعد أن كان الشاعر في العصور السابقة بالأندلس يقلد ويعارض في روضياته، قويت فيه النزعة واستحكمت بحيث أصبحنا نقرأ في أشعاره شخصية الشاعر المتفاعل مع بيئته وبذلك استطاع أن يحقق امتيازاً على الشاعر المشرقي، بقدر امتياز الطبيعة الأندلسية التي سكبت في روع الشعراء، فأقبلوا ينهلون من رضابها، ويرشفون من حلابها، وخالطت نفوسهم بشاشتها، استمع إلى ابن خفاجة:[2]

إن للجنـــــة بالأنـــــدلس ... مجتلـى حســن وريـا نفـس
فســنا صــبحتها مــن شــنب ... ودجـى ليلتهـا مــن العــس
فـإذا مـا هبـت الـريح صـباً ... صحت واشـوقي إلى الأنـدلس

لقد استحوذ جمال الأندلس على حواسه وجوارحه فصاح من فرط إعجابه "وا شوقي"[3] ولم لا؟ وهو يرى في الطبيعة صورة من صور جنة الخلد التي وعد الله عباده يوم القيامة:

يـا أهـل أنـدلس لله دركـم ... مـاءٌ وظـلٌ وأنهـار وأشـجار
مـا جنـة الخلـد إلا في ديـاركم ... ولـو تخيرت هـذي كنـت أختـار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تدخل بعد الجنة النارُ

إن النصين المتقدمين آنفاً، بطاقتا تهنئة أزجاهما شاعر الطبيعة للأندلس فخلد بهما جمالها على مر العصور، ولا يقل عنه شأناً بل ربما يضاهيه ابن اللبانة في مقطعة يصف فيها ميورقة إحدى جزر البليارد في البحر الأبيض المتوسط:[4]

نـزل الحيـا بنزولـه في معهـد ... لـبس المسـرة ربعـه المـأنوس
فكأنمـا مـاء الغمـام مدامـةٌ ... وكـأن سـاحات الـديار كـؤوس
بلـد أعارتـه الحمامـة طوقهـا ... وكسـاه حلـة ريشـه الطـاووس

والأبيات تذكر بما يرويه المقري في نفحه من أن هارون الرشيد حين مثل بين يديه رجل مغربي لأمرٍ ما قال مدلاً بسعة سلطانه وعلو شأنه:

"يقال إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب، فأجابه المغربي: صدقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاووس".[5]

والطبيعة تترك أثراً في مخيلة الشاعر حتى يستخدمها في موضوعات الشعر كافة، فمما جاء في مدحة ابن اللبانة قوله:[6]

---

١ نفسه، ٦٠.
٢ ديوانه، رقم ٨٨.
٣ ديوانه، رقم ٣٠١.
٤ ديوانه بتحقيقنا، ق ٤٧.
٥ النفح، ٢٢٨/١. وينظر تيارات الأندلسي، ٨٤ . ٨٥.
٦ ديوانه، ق ١٩.

هـــو صـــبحٌ وربيـــعٌ وحيـــا يجتلـى أو يجتنـى أو يجتـــدى

وإذا أصيب الممدوح بسوء فإنّ الكون والطبيعة يشاركانه هذا المصاب:[1]

شكا لشكواك حتى الشمس والقمر وفاتَ درّ الدّراري الزهر ينتشرُ
وراحت الرّيح لا يذكو لها عبقٌ وأصبح الروض لا يندى له زهر
وقلّص الظّل في فصل الرّبيع لنا فكادت الأرض الرمضاء تستعر
والماء غاض لنا غيضاً فما نبعت عين ولا سال في بطحائها نهر
والسحب صاحبها ذعرٌ فما نشأت ولا استهل لها فوق الربا مطرُ

وشعر الطبيعة يمثل لنا مدى تعلّق الأندلسيين ببيئتهم الجديدة، فاتجهوا يصفون صُنع الله في الكون فجمال الطبيعة كان أهم باعث على قول الشعر فيها، وقد تفاعل الشعراء معها في حالهم سعدهم وحزنهم، سرورهم وأساهم.. وابن خفاجة في مقدمتهم، ملأ جمال الدنيا عينيه فمال بكليته إليه،[2] ومن هذه الألوان في الطبيعة الصامتة ما قاله في الروض والشجر: كالأراك، والبان، والسلم، والريحان، والسدر، والدفلى، والرند.. ومن الأزهار: النارنج، والريحان، والورد، والشقيق، والنيلوفر، والأقحوان، والعرار، والخزامي، والنرجس، والسوسن، والبنفسج، ومن الثمار: النارنج، والتين، والعنب، والرمان، وفي الغصون، والربى، والبطاح، والجبال، والأنهار، والبحر، والغمام، والمزن، والندى، والسيل، والبرد، والثلج، والبرق، والرعد، والشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار...

كما نجد الطبيعة الحية بألوانها في وصف الحيوان.. وقصائد في وصف الأدوات والآلات كالسيف والرمح والأبنية والقصور.. والطعام والشراب، ومن هنا فالشاعر متجه إلى التخصص في الشعر لا سيما في الأزهار إذ يفرد في كل نوع أبياتاً.

ولم يكن ابن خفاجة بدعاً في ذلك فإن ابن حمديس الصقلي لم يقل مقامه عنه حيث يقرر إحسان عباس أن الوصف موضوع كبير جداً في ديوانه، وللبيئة الصقلية أولاً والأندلسية ثانياً أثرهما في إبرازه على هذا النحو، وهو يشمل عناصر كثيرة فهناك وصف الطبيعة من أنهار وغدران وسواق وأشجار وأزهار كالنيلوفر والشقائق، وفواكه كالنارنج وسحاب وبرق ورعد وبحار.. ووصف الحيوانات والحشرات كالأسد والناقة والزرافة والعقرب والبق والبعوض والذباب[3]... إلا أن إحسان عباس لا يلمس تعاطفاً بين الشاعر والطبيعة، وهو رأي فيه نظر، ولا سيما لمن يستقرئ شعره.

غلبت على شعر الطبيعة فنون البديع والبيان، فجاء مثقلاً بالتشبيهات والاستعارات "مترعاً بالأخيلة، بل كان مثقلاً بها حُمل منها فوق ما يطيق... وكما يحدث لشجرة مثقلة

---

١ ديوانه، ق ٣٦.
٢ الشعر الأندلسي، كنون ٣٨٥.
٣ مقدمة الديوان، ص ١٩. قصيدتان له برقم ٥٦ و ٥٧.

بالثمار إذ تسقط عنها الثمرات واحدة واحدة".[1]

وتكثر المحسنات البديعية في شعر الطبيعة كما تكثر الصور البيانية ممثلة في التشبيه والاستعارة والكناية على نحو ما نجد في شعر ابن اللبانة حيث يقول:[2]

والوردُ تحت الطّل فيها مشبه ... خدّا يذوبُ من الحياء فيقطر
وكأن نرجسها أصيب بروعتي ... فعلاه لون مثل لوني أصفرُ
فكأنما الريحان روحي كلّما ... تتغير الأشياء لا يتغيرُ

وقد نظروا إلى الطبيعة إلى أنها حية تشاطرهم الحياة ويشاطروها حياتها فشخصوا لنا الأمور المعنوية فمنها قول ابن حمديس يرثي جاريته (جوهرة):

يا باقةً في يميني بالردى ذَبُلت ... أذاب قلبي عليك الحزن والأسف
ألم تكوني لتاج الحسنِ جوهرة ... لمّا غرقت فهلا صانك الصّدف

وظاهر البيتين أنهما في باقة ذبلت، لكن النظرة المتأملة، لا تلبث أن تعيدهما إلى سياقهما مستعينة بالقرائن على ذلك، ومنها "جوهرة" و"غرقت"، وأما "جوهرة" فقد أوردها على صفة التورية، إذ هو لا يريد الحجارة الثمينة بل جاريته التي ابتلعتها مياه البحر ولم تصنها أصدافه وإنما أورد الشاعر "باقة" على سبيل الاستعارة التصريحية.[3]

ولابن حمديس أبيات في هجاء باقة جميلة لكنها خالية من العطر:[4]

وباقةٍ مستحسن نورها ... وقد خلت في الشمّ من كل طيب
كمعشر راقتك أثوابهم ... وليس في جملتهم من أديب

ونراه في موقف آخر يحنو على زهرة (النيلوفر) لأنه وجدها غريبة مثله فيقول:

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه ... كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر[5]

عند ابن خفاجة:

وما دمنا نستعرض النصوص الشعرية ذات الامتياز، والتفوق فإنا نجد قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل رائعة مشهورة، نطقت عن هذه المشاركة الوجدانية للطبيعة يبدؤها بالحكمة والاعتبار، ويصور حالته النفسية واضطرابه حتى يبلغ البيت العاشر فيصف الجبل:[6]

وأرعنَ طمّاحِ الذّؤابة باذخٍ ... يطاولُ أعنان السماء بغاربِ
يسدّ مهبَ الريح عن كلِّ وجهةٍ ... ويزحمُ ليلاً شهبَه بالمناكب

---

١ الشعر الأندلسي، غومس، ٢٦.
٢ ديوانه، ق ٣٤.
٣ ديوانه، ق ١٩٦. وينظر البحر في شعر الأندلس والمغرب، ص ٣٦.
٤ ديوانه، ق ٢٠.
٥ ديوانه، ق ١١٣.
٦ ديوان ابن خفاجة، ق ١٦٤.

وقـورٌ علـى ظهـر الفـلاة كأنـه ... طِوال الليالي مُطرِقٌ في العواقبِ
يلـوثُ عليـه الغـيمُ سـودَ عمـائمٍ ... لها من وَميضِ البَرقِ حمرَ ذوائبِ
أصختُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ ... فحـدّثني ليـلُ السّـرى بالعَجائـبِ

أعجب النقد الحديث بالقصيدة، وأعرب الباحثون عن استحسانهم إياها فقال عنها جودة الركابي:[1] إنها نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم، وقال عنها محمد رجب البيومي:[2] إنها جاءت نسقاً شعرياً متكاملاً ذا شعاب وأفانين، ولو ذهب جميع ما قاله ابن خفاجة وبقيت وحدها، لكانت معجزة إبداعه، ودليل تفوقه! وقد كانت لنا وقفة سابقة عند هذه القصيدة وأخت لها في وصف القمر، حيث لاحظنا نزعة إسلامية صوفية تلابسهما[3].. وفي ترجمة حياته.. وأشعاره.. ما يعزز هذه النزعة.[4]

رأى بعض الباحثين أن ابن خفاجة استوحى في هذا التصوير مخاطبة مجنون ليلى لجبل التوباذ[5].. وفرق كبير بين الشاعرين في قصيدتهما، لأن قول المجنون خطرة عابرة، لو وقف عندها ابن خفاجة لما بلغ هذا النفاذ، ولو كان المجنون. على سبيل المثال. موحياً موجهاً لكان لابن خفاجة فضل أثير، أن يكون موضع هذا الإيحاء، وقد عبرت القرون خلف المجنون، وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقاً وغرباً دون أن يبدع أحدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة[6].. ومن الشعراء الذين تأثروا بهذه القصيدة الرصافي البلنسي في رائيته المشهورة.[7]

وإذا كنا قد تمثلنا النصوص الشعرية أنماطاً في وصف طبيعة الأندلس، فإن جلها كان حول الطبيعة الصامتة، ولنا أن نتمثل على الطبيعة الحية، أو وصف الحيوان فإنه. من الموضوعات التي نظم فيها الشعراء الأندلسيون، وأكثروا فيها على نحو واسع، ومن أبيات ابن شهيد التي اختصها بوصف النحلة على نحو دقيق، وبراعة متناهية، يقول:[8]

وطائرةٍ تهوي كأن جناحها ... ضميرٌ خفيٌ لا يحدّده وهمُ
ملازمةٍ للروض حتى كأنّما ... لها كلّ ما تفترّ عنه الربى طُعمُ
تمج بفيها الشّهد صرفاً ويختفي ... لمشتاره ما بين أحشائها سهم
منافرةٍ للإنس تأنس بالفلا ... مفّرقة للشهد من بَعضها السّم
فإدناؤها رشدٌ، وهتكُ حجابها ... إذا احتجبتْ في غير أيامها ظُلم

"والصورة تعتمد قدراً غير قليل من التفصيل، وبسط القول في صفات هذا الحيوان

---

١ الطبيعة في الشعر الأندلسي، ٣٦.
٢ الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ٧٨.
٣ الاتجاه الإسلامي، ٤٩٩ وما بعدها.
٤ بغية الملتمس، رقم ٥٠٢. ديوانه، ق ١٤.
٥ فصول في الشعر ونقده، ١٥٨.
٦ الأدب الأندلس بين التأثير والتأثر، ٧٨.
٧ ديوانه، ق ٢٤. وتنظر مقدمة الديوان، ١٨.
٨ ديوانه، ق ٦٠١.

في مظهره ومخبره وتحركه وطيرانه، وحتى في طباعه".[1]

وقد سقنا بين يدي البحث نصوصاً شعرية تمثل عصور الأندلس المختلفة وقد آن لنا أن نتوقف عند عهدي الموحدين وبني الأحمر، ولعل خير من يمثل العهد الأول شاعران هما ابن سهل الأندلسي (ت٦٤٩هـ) وابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى (ت٦٨٤هـ)، وكانا صديقين، وكثيراً ما كانا يتشاركان في نظم القصيدة الواحدة، ويجيز أحدهما للآخر، وكانا بلديين، وكانت إشبيلية من أغنى المدن الأندلسية بمنتزهاتها ومنها: السلطانية، والعروس، وفم الخليج، ومرج الفضة، وشنبوس، وقصر حسّان، والفنت، وجنّة قشتيلة،[2] وشرق إشبيلية وادي الطلح، وفيها مدينة طربانة وتيطل.[3]

فمن ذلك قول ابن سهل في رائيته التي يعارض فيها رائية ابن عمار التي أشرنا إليها في شعر المديح:[4]

الأرض قد لبستْ رداء أخضرا ... والطّل ينثرُ في رُباها جَوهرا
هاجتْ فخلت الزّهر كافوراً بها ... وحَسبتَ فيها التربَ مسكاً أذفرا
وكأنّ سوسَنها يصافحُ وردَها ... ثغرٌ يقبّل منه خَداً أحمرا
والنهرُ ما بينَ الرياضِ تخالُه ... سَيفاً تعلّق في نِجادٍ أخضرا
وجرتْ بصفحتهِ الصَّبا فحسبتُها ... كفا تنمّق في الصحيفة أسطرا
وكأنّه إذ لاح ناصعُ فِضّة ... جعلته كفّ الشّمس تِبراً أصفرا

ويقول ابن سعيد ذاكراً وادي الطلح:[5]

سائلْ بوادِي الطّلح ريحَ الصّبا ... هل سُخرتْ لي في زمانِ الصَّبا
واذكر بوادي الطّلح عهداً لنا ... لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الأ ... غصانَ والزّهرُ يبثّ الصّبا
والطيرُ مازتْ بين ألحانها ... وليس إلا مُعجبا مطربا

ولم يكن شعراء بلنسية. في عهد الموحدين. أقل اعتباراً بالطبيعة وتأملها، وممن نظم فيها أبو المطرف بن عميرة، فاستمع إليه يصف نزهة في نهر شقر:

خذ في حديثك إن وصفكَ يطربُ ... عن يومِ إنسٍ ذكرهُ مستعذَب

أبرز الخصائص الفنية:

وبعد هذه الوقفة المتأنية عند شعر الطبيعة في الأندلس. الحية والصامتة. نخلص إلى أبرز الخصائص الفنية التي اتسم بها.. ففيما يتصل بأساليبهم ولغتهم:

---

١ وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، ١٧٩.
٢ مقدمة ديوان ابن سهل، ص ١٦. د. إحسان عباس.
٣ نفح الطيب، ٢/٢٨٥، ١/١٨٢.
٤ ديوانه، ق ٤٥، ص ١٦٣.
٥ النفح، ٢/٢٨٥.

١. استخدموا فنون البديع على صورهم، من طباق وجناس ومقابلة ومبالغة، وكان ولعهم بحسن التعليل سمة واضحة في أشعارهم.[١]

٢. كذلك أفادوا من فنون البيان، من تشبيه واستعارة وكناية.. وكانت عوامل مهمة في بناء الصورة الفنية لقصائدهم فقد استنفذوا طاقاتهم. ما اتسعت. بقصد الإتيان بالصور المبتكرة والمستحدثة والطريفة ولذلك غلبت سمة التشخيص والتجسيم في قصائدهم والمراد بهما نسبة صفات البشر إلى أفكار مجردة أو إلى أشياء لا تتصف بالحياة،[٢] ولأن الذوق السائد في العصر كان له أثر كبير وجدنا سمات التشخيص والتجسيم مجردة من التعاطف الوجداني القائم على استبطان مظاهر الطبيعة والتعمق في تأملها على نحو ما نجد عند ابن خفاجة في قصيدة بوصف الجبل، وقد تجلى هذا الاتجاه في عصر النهضة وأطلق عليه المذهب الرومانتيكي.

تأكيدهم على الألوان في الصور الفنية التي رسموها وكذلك الكلمات الدالة على الحركة[٣] على نحو ما نجد في قصيدة ابن سهل التي عارض بها ابن عمار، وعلى نحو ما نجد في قول:[٤]

والشمس قد ألقتْ عليه رِداءَها فتراهُ يرفلُ في قَميصٍ أصفرِ

أو في قول ابن سعيد:[٥]

والشمس قد رَقَمَتْ طِرازاً فوقَه فكأنّمـــا هـــي حلـــةٌ زرقـــاء

٣. كذلك غلبت على أساليبهم سلاسة الأسلوب في أكثر أشعارهم، وميل بعضها الآخر إلى جزالة الألفاظ ومتانة التراكيب، ومن الضرب الأول: المقطعات الشعرية التي مرت بنا في سينية ابن خفاجة ورائيته "إن للجنة بالأندلس"، و"يا أهل أندلس".

٤. وفيما يتصل ببناء قصيدة شعر الطبيعة نلاحظ تبايناً فيها حيث ترد في صيغة مقطعات قصيرة وقصائد طويلة وموشحات، وفي الضرب الأول يقتصر على موضوعه، وأما في القصائد فتمتزج بموضوعات أخرى كالغزل والمديح ووصف المجالس والشوق والحنين والرثاء، وكذلك يمتزج بها في الموشحات.

وفي مجال الموازنة بين شعري الطبيعة في الأندلس والمشرق، اعتمد المشارقة على العقل والتفكر في وصفهم فكانت صورهم أعمق وأقوى من الأندلسيين الذين اعتمدوا على الحس والذوق فكانت صورهم أجمل وأوضح.[٦]

---

١ قضايا أندلسية، ص ٧٧، ١٤١.
٢ الأدب في عهد المرابطين، ٩٦.
٣ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ١٠٢.
٤ ديوانه، ١٦٦.
٥ نفح الطيب، ٢٦٣/٢.
٦ قضايا أندلسية، ١٤١.

كتب في شعر الطبيعة:

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع في الشعر الأندلسي وكثرة ما أنشأ فيه الشعراء على امتداد عصور الأندلس فإن الكتب والمصنفات التي ألفت فيه لم تقع بين أيدينا، باستثناء كتاب واحد هو البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل الحميري (ت٤٤٠هـ)[١] فقد قرر المؤلف في التمهيد بأن فصل الربيع آرج وأبهج وآنس وأنفس وأبدع وأرفع من أن يحد حسن ذاته ويعد بديع صفاته، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يعن بتأليفه أحد.[٢]

اختص كتابه بنتاج عصره من أهل الأندلس لأن نتاج المشارقة. كما يرى. قد كثر الوقوف عليه والنظر إليه حتى ما تميل نحوه النفوس وقد انتظم في ثلاثة فصول هي:

أولاً: القطع التي لم يسمّ فيها نور.

ثانياً: القطع التي لم تنفرد بوصف نوار بل اشتملت على وصف نورين أو أكثر.

ثالثاً: القطع المتفردة كل واحدة بنور.

وأما الدراسات الحديثة فإنها لم تفِ على نحو ما ينبغي فقد جاءت دراسة جودة الركابي موجزة مختصرة في حوالي خمسين صفحة وله فضل السبق في دراسته إلا أن ما يتخونه التتبع والاستقصاء والتحليل والاستنباط إذ جعله في أربعة فصول تحدث في أولها عن شعر الطبيعة في الأدب العربي وثانيها يدور حول بواعث شعر الطبيعة في الأندلس وأشهر أعلامه والأطوار الثلاثة التي مر بها في قرونه الثمانية وجاء الفصل الثالث فقد تحدث فيه عن خصائص وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي أجمل الركابي هذه الخصائص في تسع نقاط.

أما الفصل الرابع فلمنتخبات من شعر الطبيعة لابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة ونصوص أخرى لغيرهم، ولعل ميزة الكتاب، أن المؤلف حاول أن يدلل بأن الأوربيين لم يمتازوا علينا بشعر الطبيعة كما يزعم عدد من الدارسين.

ومن الدراسات الحديثة المتخصصة دراسة نهض بها حازم عبد الله خضر،[٣] تحدث فيها عن الطبيعة الحية في عصري الطوائف والمرابطين وجاءت في بابين تناول في أولهما استعراض النماذج الشعرية في وصف الخيل والإبل ونعوت الأسد والذئب وكلاب الصيد ثم أوصاف الحمام وختم الحديث في نعوت الطيور الجارحة والزواحف، وفي الباب الثاني وقف عند الخصائص والسمات الفنية لهذا الشعر في بناء القصيدة ودلالة الموضوعات على نفسية الشاعر وشخصيته وأبرز ملامح المجتمع والبيئة الأندلسية

---

١ حققه هنري بيرس بعنوان (البديع في فصل الربيع)، ط معهد العلوم العليا المغربية، ١٩٤٠. تنظر دراسة د. محمد مجيد السعيد (الحميري وكتابه البديع)، مجلة آداب المستنصرية، العدد ١٠، ١٩٨٤.

٢ البديع، ص ١.

٣ وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، ط وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٧.